المستقبل للإسلام [1]

العلم والفلسفة يهيئان العقول والقلوب لقبول الإسلام دينا عالمياً

ربما خيّل لمن لا يعرف الإسلام أن هذا إعلان جرئ، ولكنا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل .

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه فى النقد والتمحيص ، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يعوزه البيان ، فإليك :

قُذف بالإنسان إلى هذا العالم جاهلا به غاية الجهل ، عَميًّا عن أسراره كل العماية ، ولولا أن خالقه جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات ، لمات ظماً وسَغَباً ؛ ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضّوارى التى كانت تتعقبه ، ويحتمى من العوارض الطبيعية التى كانت تنصبّ عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولكنه وهبه عقلا ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً ؛ حتى استطاع أن يأمن شر العوادى ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة . ثم ما برح يرقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل فى المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مساتير الوجود ، واخترع الآلات المعجبة ، وهو اليوم يحدث نفسه بالصعود إلى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم فى نواميس الحياة .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الإنسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة

---

(١) طلب إلينا أن ندلى بأقوى ما نملك من حجج فى موضوع أن المستقبل للإسلام ، ففعلنا ، ولم نشأ أن نقصر انتشار هذا البحث الجامع على عدد محصور من القراء ، فرأينا أن نعمم إذاعته بنشره فى مجلة الأزهر ليكون إلى جانب نظائره مما نقوى به حجة الإسلام فى هذه المجلة .

بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للإنسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشى الإنسان فى هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط فى نظره الواحدة بعد الأخرى ، جميعُ الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، عادًّا ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية ، تأسس الأصول الآتية :

(أولا) زوال آثار الوراثات الدينية .

(ثانيا) امحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

(ثالثا) قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

(رابعا) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

(خامسا) الميل إلى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجاعلة إياها شيعا .

(سادسا) الاتجاه إلى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أيه طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا محيص من تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية . وقد تولدت فعلا وصارت جُزْءاً من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصرا رئيسيا من عناصر العقلية الأوربية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدهماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لابد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فإذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية ، للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الإسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ،

وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (١) الآية . وقد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فأتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها ، كذلك ستصدِّق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيُرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب فى أقوال الكثيرين من أقوال علماء الغرب ، وقد رأى بعضهم ومنهم (برنارد شو) أن أوربا قد لا يمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الإسلام دينا .

أى شىء يعتبر فى حكمه هذا بعيدا عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التى أثبتناها هنا ، وهى أخص أصول الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الإسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله دينا للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلف الإسلام كل داخل فيه أن يكون متجردا من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ؛ وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأي سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فإذا تمت له هذه التصفية ولُقّن أمور الدين ، أُمر أن يتعقلها وأن ينظر فى أدلتها ، ونُهى أن يأخذ بها تقليدا مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ؛ وكُلِّف

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) سورة فصّلت : ٥٣ .

أيضا أن يتأمل فيما نصبه الله فى الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتتبع لأسرار الخلق ، مخضعا كل ما يحصله لأدق أساليب التمحيص والتحليل ، حتى لا يتورط فى الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يستخدمه فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيشات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فاليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وقد شرح النبى ﷺ هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق « الإسلام » ولكن أبويه ينقشان فى عقله من الصور ما يغيّران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم الظنون والأوهام : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢) . وقال ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٤) . وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ . وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال فى ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .
(٢) سورة يونس : ٦٦ .
(٣) سورة يونس : ٣٦ .
(٤) سورة ص : ٢٦ .

ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) . وقال : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحقًا لِّأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٤) .

وقال تعالى فى المسئولية الشخصية ، وفى عدم جواز الاعتماد على الغير : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (٦) . وقال : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ (٧) (أى فداء) .

وقال تعالى فى ذم التقليد الأعمى : ﴿ وَقَالُوا (أى يوم القيامة) رَبَّنَآ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (٨) . وقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ (أى يوم القيامة) مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (٩) .

وقال تعالى فى وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفى النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ

---

(١) سورة الأنفال : ٢٢ .
(٢) سورة البقرة : ١٨ .
(٣) سورة يونس : ١٠٠ .
(٤) سورة الملك : ١٠،١١ .
(٥) سورة المدثر : ٣٨ .
(٦) سورة النجم : ٣٩-٤١ .
(٧) سورة البقرة : ٤٨ .
(٨) سورة الأحزاب : ٦٧ .
(٩) سورة البقرة : ١٦٦،١٦٧ .

فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ (١) . وقال فى وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقال فى تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَل نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَولَو كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

هذا دستور دينى جاء به محمد ﷺ فى زمن لم يكن فيه لدستور أيا كان نوعه دولة فى الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن للحكومة دستورا قط . فكان الناس من هذه الناحية غرق إلى يافيخهم فى حكومة الفرد لا يعرفون لهم حقوقا ، ولا وجودا معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله العلامة لاروس فى دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج الدليل ، فعبارات كانت تجر إلى النار المحرقة فى تنانير كانت أعدت لذلك .

جاء محمد ﷺ بذلك الدستور الدينى ، وهو القرآن ، والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل لا يحبون أن يسمعوا داعيا يدعوهم إلى نقيضه ، وإذا أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبى ﷺ حين دعاهم إلى النور فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٥) . وقالوا : ﴿ أَإِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة المؤمنون : ١١٧ .
(٢) سورة النمل : ٦٤ .
(٣) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٤) سورة الزخرف : ٢٢ .
(٥) سورة الحجر : ٦ .
(٦) سورة الصافات : ٣٦ .

فرد الله عليهم بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ (١) .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهى فى البقعة الفسيحة من الأرض التى استولى عليها المسلمون فى أول الإسلام ، هى دخول أمم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تكملها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الإسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمى فحسب ، ولكن أصوله الأولية هى ذلك الدستور نفسه ، بالغا أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تفلت منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾(٢) .

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم فى الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطرها بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ (هنرى بيرانجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخى قد حطم اليوم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان ،

---

(١) سورة المؤمنون : ٧٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية ، فى أخس الأديان الوثنية ، كما فى أرقى المذاهب الروحانية . هذه هى الشرارة البسيكولوجية (أى النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فمن المحال أن يطفئها ، ولكنه سينقلها إلى المستقبل » .

ثم قال :

إننا نأمل الوصول إلى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية (أى الطبيعية) قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فجان جاك روسو ولمرتين ولامنيه وميشيليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست رينان وجيو وشوريه وساباتييه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة » انتهى .

نقول : ما هى هذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلة ؟

إنا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها ، وهو الفيلسوف الفرنسى (كارو) ، فقد قال فى كتابه : (البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) ما يأتى :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها . وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى ، ووجود روح للإنسان متصفة بالإدراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها إلى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة

الموت بالزهادة . وأخيرا الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الإنسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » اهـ .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين ، غير محاولة الرجوع لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، فى الآفاق المحيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى (أى الطبيعى) آت لا محالة باعتبار أنه دين عالمى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الإسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فإذا آنس الناس تلكؤا فى التمشى إليه فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستميتون فى تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا تطهيرا لها من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى فى الناس من يعتقد فيما لا يعقل ، وإذ ذاك تحل الروح الاسلامية فى العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الحاضر .

فى ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشئ غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى عاجلا أو آجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك ، لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه فى قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به إلى حكم العقل والعلم ، لا إلى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترقٍّ ، فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدلٍّ ، فهو فى شرعته كفر .

هذا هو الدين الذى جاء به محمد ﷺ دينا عاما للبشر كافة . فهل تجد محيصا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فإن كان فى العالم أصول كلما أمعنتَ فى البعد عنها ، ازددت قربا منها ، فهى الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (٢) .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (٤) (*) .

* * *

---

(١) سورة آل عمران : ٨٣-٨٤ .

(٢) سورة النساء : ١٧٤-١٧٥ .

(٣) سورة الصف : ٨ .

(٤) سورة سبأ : ٦ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، صفحة ٢٨٩ ، سنة ١٣٥٩ هـ .

العوامل الأدبية التى اعتمد عليها الإسلام
فى تقويم الشخصية الإنسانية بسرعة لم يعهدها البشر

المعلوم من التاريخ بالضرورة ، أن الإسلام نشأ فى شبه الجزيرة العربية ، فآخى فى سنين معدودة بين قبائلها المتضاغنة ، وألّف منهم أمة ؛ وحلّى تلك الأمة بالرُبُط الأدبية والمادية التى لابد منها لكل بنية اجتماعية ، وأحاطها من الحوافظ الذاتية بما صان وجودها ، فى جميع ما طرأ عليها من أدوار الانتقالات والانقلابات ، سليما قويا ؛ وأودع كيانها من بواعث التطور ما دفعها للترقى فى جميع مجالات النشاط العلمى والعملى ، خالصة من جميع القيود التقليدية التى تعطل من انتقال الجماعات ، وتبطىء من سيرها ، فوصلت فى نحو قرنين إلى مستوى رفيع حصلت معه على الزعامة العالمية . وهى ميزة لم تُمنحها إلا أمم معدودة فى الأرض .

وصلت إلى هذا الأوج فى خُطًى متزنة ، وتدرج محكم ، ونظام مدبَّر ومُثُل عليا ، شأن كل جماعة تصدر عن ذخر أدبى متأصل فى طبيعتها ، أو تمرّست به أجيالا متعاقبة من حياتها .

فإذا كان هذا الحادث الفذ فى تاريخ البشر يعتبر صعب التعليل بالأسباب المعروفة ، فلا يقل عنه فى صعوبة التعليل تأثيره طفرة فى جماعات مفككة الأوصال لم تعتد النظام ، ولم يعمل فيها ناموس التطور منذ أجيال ، ولم تعرف قبائلها الوحدة منذ وجودها ، ولم يُؤْثر فى تاريخها أن داعيا دعاها إليها فى عهد من عهودها .

ومما يكسب هذا الحادث الجلل مظهرا ممتازا ، أنه كان مصاحبا لسمو لم تشهده البشرية من قبل ، فى أخلاق القائمين به وآدابهم ، وتطور لم يكونوا قد وصلوا إليه ولا الإنسانية أجمع ، فى أصولهم ومبادئهم . فإذا كان الناس قد عهدوا أن الانقلابات العالمية الكبرى أول ما توجد طائشة هوجاء ، تثور ثوران الزوبعة لا تفرق فى هبوبها المفرط بين ما يجب تحطيمه وما يجب الإبقاء عليه ، فى طغيان

من القائمين بها ، لا تردها حكَمة ، ولا تردعها شكيمة ، فإن الانتقال الذريع الذى أحدثه الإسلام ، رافقته رحمة بالمقهورين ، وعطف على المستضعفين ، وأمان للخائفين ، وإنصاف للمظلومين ، واحترام لعقائد المخالفين ، كأنه حركة مدبرة فى مهلة طويلة من التروى والتفكير ، أو خطة مقررة دُرست مقدماتها ونتائجها فى مَلاوة من الزمان صُرفت فى الحسبان والتقدير ؛ وليست الحركات العادية للجماعات فى شىء من هذا ، كما تدل عليه الانقلابات الكبرى التى مرت بالإنسانية فى عهدها الطويل بالوجود ؛ والانقلابات التى يكون مصدرها بلاد العرب ، أبعد البيئات عن النظام ومراعاة الأصول ، أولى أن تكون على مثال جميع الانقلابات العالمية التى سبقتها من هذه الناحية .

فصدور أكبر انتقال فى العالم الإنسانى ، فى بيئة لا عهد لها بمثله ، بل ولم تشارك العالم فى غيره ، على ما رأيت ، منظما مقدرا ، ومصاحبا لأعظم انقلاب أدبى لم يصل إليه النوع الانسانى بعد ، يجب أن يكون موضوع دراسات عميقة على ضوء العلوم الاجتماعية والنفسية ، وقد قطعت هذه العلوم شوطا بعيد المدى فى تفلية الحوادث ، وتعقب تطوراتها ، للوصول إلى أبعد مناشئها ، وتحليل الحالات العقلية ، وتتبع أدوارها ، لوجدان بواعث صدورها ؛ فإذا أنجحنا فى ذلك أطرفنا العالم بجديد من البحوث لا تقف دعايته للإسلام ، ودلالته على معجزاته عند حد .

مواطن التأثر فى النفس البشرية :

لا يتأتى أن تقوم دعوة فى الأرض إلا إذا حلت مواطن التسليم من بعض النفوس ، وهذا التسليم حكم عقلى لا معدى عن الخضوع له .

فموطن التأثر بالدعوات هو العقل ، لذلك تَعقّبه أصحاب النحل ، وحاولوا النقص من سلطانه على ضروب شتى ، أهمها زعمهم أن ما هم بصدده من العقائد يعلو متناول العقل ، فيجب أن يسلم به بدون عرضه عليه ؛ ويفوتهم أنهم لو كانوا مصيبين فيما يقولون لوجب الأخذ بجميع العقائد المناقضة لأحكام العقل ، لعدم وجود المرجِّح لأقربها إلى الحق .

ومن شبهاتهم على سلطان العقل ، أنه لم يصل إلى كماله بعد ، فما يقرر حقيته

اليوم ، وهو فى درجة من التطور ، ينقضه متى اجتاز تلك الدرجة ، وربما عاد إلى ما كان نقضه من قبل .

قالوا هذا ، وفاتهم أن المراد بسلطان العقل ما حُمِّله بفطرته من العلم الضرورى بجواز الممكنات ، وطلب الدليل على وقوعها ، واستحالة المستحيلات البدهية ، كاجتماع النقيضين ، ووجود الشىء فى مكانين الخ ، وهذه الأصول الأولية عامة فى جميع أفراد النوع البشرى لا تتخلف فى بعض آحاده إلا لعلة عقلية ، فيرتفع التكليف عن أصحابها بتخلفها .

فهذا السلطان الفطرى للعقل كاف فى حمايته من الضلال فى أصول المعتقدات ، وهو مناط التكليف ، وموطن المؤاخذة .

هذا هو المراد بسلطان العقل ، لا أن يكون قادرا على خوض غمرات البحوث المختلفة ، وإدراك مراميها البعيدة ، وبناء النظريات المجردة ، وإقامة أدلتها ، والترجيح بينها الخ الخ ، مما لا ينال إلا بتحصيل علوم كثيرة ، لا تتسنى إلا لأفراد ينقطعون لها سنين طويلة .

فإذا أقام الناس سلطان العقل الفطرى ، لم يستطع أصحاب الأهواء أن يسمموا نفوسهم بالعقائد الضالة .

العوامل التى تمكن بها المضللون من هدم سلطان العقل :

مع قيام سلطان العقل الفطرى بين الناس ، وترتيبهم أعمالهم الدنيوية عليه ، استطاع المضللون هدم هذا السلطان فيما يتعلق بالعقائد الدينية ، فكان ذلك سببا فى فساد نفسياتهم ، وطول أمد جاهلياتهم ، حتى صار مألوفا أن الأمم التى تقع فى التحجر الاجتماعى لا تنجو منه إلا بثورة على عقائدها تقلبها رأسا على عقب .

وإنما نجح المضللون فى هدم سلطان العقل الفطرى ، باعتمادهم على جهل الجماعات التى تبلى بهم ، وباهائها بالخيالات والأوهام ، وبالتذرع فى إخضاعها لها بوسائل الإرهاب ، وهذه العوامل الثلاثة إذا اجتمعت فلا تقوى الجماعات الساذجة على مقاومتها ، فتستخذى لها ، وتقبل من رؤساء دينها كل ما يلقنونها إياه من التعاليم

وإن جافت حكم العقل ، لأنها جردته فى هذه الناحية من سلطانه فلا يكون له سبيل إليها ، وإذا طاف برأسها خيال منه طردته من مجاله ، واعتبرت ذلك من نفسها تورعا ، واستمرت على هذه الحال حتى تحفزها المثلات إلى الحركة ، فتهب من سباتها ، وأول ما تخلعه من عنقها باعتبار أنه سبب جمودها ، نير الدين ، الدين الذى ألفته الأوهام ، لا الدين الفطرى الذى جُبلت عليه كل نفس بشرية كما ستراه .

ما اعتمد عليه الإسلام فى بناء صرح الدين الخالد :

اعتمد الإسلام فى بنائه صرح الدين العام الخالد على العقل والفطرة ، وهما الركنان الطبيعيان اللذان تقوم جميع الشئون الانسانية عليهما ، فلم يبق الدين بذلك بمعزل عن حياة الإنسان ، يعتريه من الجمود والتحجر ما يعترى الأصول الموقوفة ، ولكنه جعله فى دائرة محاولاته يترقى فى إدراك أسراره ، واستشراف أنواره ، كما يترقى فى فهم الوجود الذى يعيش فيه ، وفى تحصيل العلم الذى يتعرفه به ، فأصبح الإسلام بذلك عند الآخذين به عنصرا سائدا على نفسياتهم ، بقدر ما للعقل والفطرة من سيادة عليها .

ولما كان الإنسان أشد وأسرع ما يكون انقيادا للشىء إذا وافق عقله وفطرته ، وكان الإسلام من هذه الناحية حاصلا على هذه الميزة بقيامه على العقل والفطرة معاً ، وهو ما دل عليه كتابه ، فقد انتشر ما بين حدود أسبانيا الغربية بأوروبا ، إلى حدود الصين الشرقية بآسيا ، وشمال أفريقا كله ، فى نحو قرن من الزمن ، ودخل فيه نحو مائة مليون من النفوس ، منها أمم برمتها قبلته دينا لها بلا دعوة منظمة ولا إجبار . وهذا حادث عالمى فذ يجب درسه ، وتعُّرف ما يهدى إليه العلم من عجائبه .

هذا هو السبب الرئيسى فى تسارع الناس إلى قبول الإسلام ، وفى شدة تمسكهم به ، وتحمسهم له ، وبذلهم المهج رخيصة فى سبيله . ونحن فى دراستنا للإسلام من ناحية سرعة تطويره للشخصية الإنسانية ، وشدة تأثيره فيها ، سنسير تحت ضوء الركنين اللذين امتاز بهما ؛ والله نسأل أن يجعل السداد رائدنا فى هذا الموضوع الخطير ، الذى نرجو أن يكون تأثيره عميقا فى نفوس الشباب المتعلمين (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ص ١٥٢ . سنة ١٣٥٩ هـ .

ما أفاده الإسلام للمدنيّة

شهادات لا يمكن التمارى فى صحتها

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتعذر تقديرها ؛ وليس المسلمون بحاجة لأن تبين لهم وجوه الإفادة الدينية ، فإن ما يعلمونه من سلامة عقائدهم ، وأصالة أصولهم ، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر ، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود ، لا تدعهم يشكُّون فى أن دينهم سن للناس كافة سنة لا محيص لهم عن القيام عليها . فإن ظهر أن كثيرا منهم لا يزالون يتحامون الجرى عليها ، فسيضطرهم الترقى العلمى والفلسفى إلى الاعتراف بحقيتها ، وإذ ذاك يلتقى الناس كافة فى حظيرة واحدة هى حظيرة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطرى والمعارف المُمحَّصة .

أما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمى العالمى ، وتولوه بالزيادة والتمحيص ، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية ، فأوجدوا بذلك مدنية ليس فى العالم اليوم من يدعى أنه ليس مدينا للإسلام من هذه الناحية .

قد استشهدنا على صحة هذه الدعاوى بجماهير من كبار المؤرخين والعلماء الأوربيين ، وآخر ما وصل إلينا عنهم فى هذا الباب كتاب حضارة العرب للعلامة الاجتماعى جوستاف لوبون وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ النابه محمد عادل زعيتر . ونرى أن نقتبس منه بعض ما قاله العلامة الاجتماعى المذكور فى هذا الشأن ليتدبره المسلمون ، ويعرفوا أن ما قصروا فيه من بيان هذا الحق ، قد قام به من منصفى الغربيين من لا يمتون إليهم بأقل صلة .

قال العلامة جوستاف لوبون تحت عنوان (تمدين العرب لأوربا – تأثير العرب فى الشرق والغرب) :

« خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والإغريق والرومان الخ ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسى ، إذا كان عظيما فيه ، فإن تأثيره المدنى فيه كان ضعيفا للغاية .

« وما عجز الأغريق والفرس والرومان عنه ، قدر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه .

« وما وفق العرب له فى مصر انفق لهم مثله فى كل بلد خفقت فوقه رايتهم كأفريقيه (يريد تونس) وسورية وفارس . وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التى لم يدخلوها إلا عابرى سبيل . وقد كان لهم تأثير واضح فى بلاد الصين التى لم يزوروها إلا تجاراً .

« ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التى كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حينا من الزمن .

« ولم يتجل تأثير العرب فى الشرق فى الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ فى ثقافته العلمية أيضا . وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسما كبيرا من معارفهم العلمية التى عدها الأوربيون على غير حق من أصل هندى أو صينى .

« ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذه الهنود عنهم ، وقد رأينا فى فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية ، وأن الفلكى الصينى الشهير كوشو كينغ تناول فى سنة (١٢٨٠) م ، رسالة ابن يونس فى الفلك وأذاعها فى بلاد الصين ، وأن الطب العربى انتشر فى الصين فى سنة (١٢١٥) م ، وقتما غزاها كوبلاى .

« نثبت الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم كتأثيرهم فى الشرق ، وأن أوربا مدينة للعرب بحضارتها .

« ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية فى أوج نضارتها ، رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم

فى أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

« مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيتها ، و لم يبد ميلها إلى العلم إلا فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم ، ولوا وجوههم شطر العرب .

« لم تكن الحروب الصليبية سببا فى إدخال العلوم إلى أوربا كما يظن على العموم وإنما دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ففى سنة (١١٣٠) م ، أنشىء فى طليطلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب . وقد كللت أعمال ذلك المكتب بالنجاح فبدأ للغرب عالم جديد ، و لم يتوان العرب فى أمر تلك الترجمة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد . و لم يقتصر فى تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد الخ وحدها إلى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية ، ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطليموس ؛ وقد روى الدكتور (لوكلير) فى كتابه الذى سماه (تاريخ الطب العربى) أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب ، و لم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان فى الحقيقة إلا من ترجماتها العربية ، وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أملها ، ككتاب أبولونيوس فى المخروطات ، وكتاب جالينوس فى الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو فى الحجارة الخ . وإذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة . قال المسيو (ليبرى) : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون .

« إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا فى القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان ، حتى فى القسطنطينية ، و لم يكن فى العالم

فى ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها ، فإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم ، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التى لا تزال موضوع جدال جربرت الذى صار بابا فى سنة ٩٩٩ ملقبا بسلفستر الثانى ، ولما أراد هذا البابا أن ينشر فى أوروبا ما تعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان .

« وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون . ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر . فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبيلييه فى أواخر القرن الماضى » .

ثم قال الدكتور جوستاف لوبون :

« وإذا كان تأثير العرب عظيما فى أنحاء أوربا التى لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم ، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك فى البلاد التى خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا ... ولن يرى الباحث مثالا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم فى أمة أخرى ، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال » .

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوربيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق فى أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة . ونحن إن نشرناه هنا كما نشرنا عشرات من مثله فى تقدير تأثير أوائلنا فى أحوال العالم الأدبية والمدنية ، فما ذلك إلا لندلل على أن فى الإسلام روحا تبعث الآحاد والجماعات إلى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها فى التعاليم البشرية ، ولنا من وراء ذلك مطلب أكبر قيمة من هذا ، وهو أن نستفيد منه لنستعيد مجدنا القديم ومكانتنا العالمية الماضية ، وهو أمر لا سبيل إليه إلا بعملنا المتواصل لتجلية الإسلام فى صورته الحقيقية باجتثاث جذور البدع المتفشية فى جميع الشعوب الإسلامية ، وقطع دابر الآراء الضالة فى الدين والدنيا والآداب العامة والخاصة ، والعمل فى دؤوب ومضاء على توهين أصول الفلسفة المادية التى تعتبر أقوى عدو للأديان فى العصر الحاضر ، ومن الله التوفيق (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد السابع عشر ، ص ٣٩١ ، سنة ١٣٦٥ هـ .

مناعة الإسلام

لقد دل الإسلام على مناعة لا ترام فى جميع أدوار تاريخه ، فاحتك بالأديان التى سبقته ، وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل فى البيئة التى ظهر فيها الإسلام ، ومرنوا على الجدل مَرانا طويل الأمد فى مجادلة الخصوم ، ومجالدة المبتدعة ؛ فلو لم يكن فى الإسلام من عناصر الغَلَب إلا ما تسمح به الأمية التى كانت عليها الأمة العربية ، والجاهلية التى كانت ضاربة بجرانها فيهم ، لظهر ضعفه من أول مصادمة ، ولما اجتذب من صميم الديانات التى كانت عليها الأمم المتمدنة إذ ذاك ، رجالا كانوا فى النؤابة من ذويهم .

وقد أبان الإسلام أيضا عن مرونة بحيث كان يؤثر حتى فى عقول الجماعات الطفلة ، فيجد طريقه إلى نفوسها من خلال حجب كثيفة من العادات والتقاليد والوراثات ، فيخلعها عنها بلباقة لا يُعرف لها سر ، ويحولها إلى درجة العقيدة الراسخة به ، على حين أنها كانت أعصى قيادا على دعاة الملل من الشعوب المتعلمة . ألم يتبار دعاة الإسلام ، وكلهم من التجار والمرتزقة ، ودعاة الأديان الأخرى ، فى مجاهل أفريقا ، فكانت النتيجة أن دخل فى الإسلام عشرات الملايين من النفوس ، وخاب مزاحموه خيبة أصبحت مضرب الأمثال إلى اليوم ؟

واليوم يُدعى الإسلام ليجرب نفسه مع العلم ، العلم الذى نعته دعاة الملل بأنه جبار عات ، ما صاول دينا إلا تغلب عليه ، وأجلاه عن أرضه ؛ فيقول الذين افتتنوا بالقشور العلمية : إن هذا الدور هو الذى سينتقم العلم فيه من الإسلام ، ويذيقه من الانحلال ما أذاقه للأديان التى نافسها وتغلب عليها ، واتخذ من أهلها شيعة له ، على الرغم من أنه أجنبى عنها ، وكتابه عربى ولغتها أعجمية .

سيخيب فأل هؤلاء الدعاة كما خاب فأل أسلافهم ، حين احتك الإسلام بالإسرائيلية والمسيحية ، والنحل الفارسية والسوريانية والكلدانية ... الخ .

نعم سيخيب لأن العلم الذى يزعجوننا به اليوم ، ليس هو علم الأمس العاتى

المتغطرس الذى كان يخيل إليه أنه كشف مساتير الخليقة ، وسرى فى سرائر الوجود ، فحكم عليه حكما لا يقبل النقض ؛ ولكنه علم القرن العشرين الوادع المتواضع ، الذى تملأ يقينا بأنه لم يلم بعد طول مراسه للكائنات ، إلا بقشورها وعلاقات بعضها ببعض ؛ أما حقائقها فلم تزل تتأبى عليه ، وتخفى فى صميمها سرا لو انكشف له لتغير فهمه فى الوجود كل التغير ، ولرأى أنه فى اشتغاله بظواهره ، ووقوفه عند حدودها ، وبنائه المذاهب عليها ، كان يخوض فى أوهام متراكبة بعضها فوق بعض . وهل بعد ما نقلناه من أقوال أقطاب العلم المعاصرين من التصريحات ، بأنهم قد أفاقوا من الغرور العلمى الذى كانوا فيه ؛ مزيد يجب علينا أن نأتى عليه لتدعيم ما نذهب إليه ؟ ماذا تريد بعد أن نقلنا إليك ما قاله الأستاذ الكبير الدكتور (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتاب الظواهر النفسية للدكتور (ماكسويل) النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية إذ قال :

لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ، ولا تقع تحت مداركنا ؟

« فالويل للعلماء الذين يظنون بأن كتاب الطبيعة قد أقفل ، وأنه لا يوجد شىء جديد يحسن تفهيمه للإنسان الضعيف » .

ماذا يريد المدل بسلطان العلم بعد هذا التصريح البليغ ، أن يخيف الإسلام به من بطشه العظيم ؟

أنا لا أريد من هذا أن أدعى أن العلم قد ضعف حكمه حتى صار يقبل كل ما يقال بدون نقد ، ولكنى أريد أن أقول إن هذا الموقف المتواضع من العلم ، أداه إلى القول بما كان يعد التخلص منه من أكبر الفتوحات ، وهو عالم ما فوق الطبيعة ، وقد جعل للبحث فيه مقاعد فى أرقى الجامعات كجامعتى اكسفورد وكامبردج .

فهذا العلم المتواضع المتبصر ، هو الذى يؤمل اليوم خصومنا أن يجد منه الإسلام الخصم الألد ، الذى يقضى فيه قضاءه الأخير .

هيهات ! فان هذا العلم سيكون من أقوى أعوان الإسلام ، لأن الأصول الإسلامية ، والمبادئ القرآنية ، تتفق وأمثالها من التى أوجدها العلم كل الاتفاق ، فلن يكون بينهما موطن نزاع على شيء من الأشياء . ولئن وُجد فإن الإسلام بما قرره من مبدأ التأويل متى أثبت العقل والعلم صحة شيء ، يخرجه من هذه المآزق مرفوع الرأس موفور الاحترام .

وقد احتك آباؤنا الأولون بالعلم ، تحت حماية هذا المبدأ الأصولى الجليل ، فلم يصادفوا منه خطراً على عقائدهم ، ومضوا حيث مضى قُدُما ، فبلغوا منه غاية لم يبلغها واضعوه أنفسهم ، واستفادوا من وسائله على أوسع ما تسمح به ، فكانوا السابقين إلى أسرار الصناعات ، وأساليب الإبداعات ، مما جعل مدنيتهم المادية من الرفعة ، فى مستوى عقائدهم الدينية من المنعة ، وخلفوا وراءهم من الآثار ما لا يزال المؤرخون يكتشفون من غرائبه ما يطرفون به معاصريهم .

نعم إن آباءنا هؤلاء قد عادوا الفلسفة ، ولهم فى ذلك تاريخ لا يستطاع إنكاره ، ولكن هذه المعاداة فضلا عن أنها لا تشين سمعتهم ، فهى تستنزل العجب من حكمتهم ؛ ذلك لأن الفلسفة ضرب من الخيالات التصورية ، وأنت خبير بقيمة الخيالات من الفلسفة العصرية ، وبما تصف به الآخذ بها من انحطاط القوى العقلية ؛ فيكون استعصاء أئمة المسلمين على سلطان تلك الخيالات ، فى عهد كان فيه سلطانها على العقول لا يستطاع دفعه ، من أقوى الدلالات على سعة عقولهم ، وسمو مداركهم ، وعلى حكمة التعاليم التى كانت تمنعهم من الترامى عليها كما ترامت عليها أكثر الأمم .

الفلسفة اليوم علمية بحتة ، أى مؤسسة على الأصول الموصلة إلى المجاهيل وفقا للأسلوب العلمى ، لا أنها خيالية تصورية ، يطير الإنسان معها على أجنحة الأوهام فيتأدى إلى نتائج يسجلها قصورها عليها تسجيلا أبديا ؛ والمسلمون كما رأيت كانت مراميهم من أول عهدهم علمية أيضا ؛ فهل يعاب عليهم ذلك بعد ما علمت أن الفلسفة الخيالية أصبحت وأحاديث العجائز فى مستوى واحد ؟

إن مناعة الإسلام التى ضربت بها الأمثال ، بعد أن خرج فائزا من جميع

ما صادفه من الخصومات فى تاريخه الطويل ، ستكلل بانتصار جديد على المذهب المادى الذى يحاول فلوله اليوم فى بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوى إليها ، بعد أن لفظته الأقطار الغربية حين ثبت لها أنه قائم على إيمان تقليدى راسخ ، بخلو الوجود من غير المادة وقواها ؛ لا على بحث قيم ، ولا تجربة حسية . والعلم بعد أن شابت ناصيته فى التطور ، ورأى خطر التحكم الوهمى على كماله ، يأبى أن ينقاد بعد اليوم لمن يصف بالوجود أو بالعدم ما ليس له به علم ثابت . وهذا هو الأصل الأول للفلسفة الحسية . قال العلامة (ليتريه) فى كتابه : (كلمات فى الفلسفة الحسية) :

« بما أننا نجهل أصول الكائنات ومصائرها ، فلا يجوز لنا أن ننكر وجود شىء سابق عليها أو لاحق لها ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك » .

وقال الفيلسوف روبينيه فى كتابه (الفلسفة الحسية) :

« يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا عنهم كل خيال أو توهم ، وأن لا يعتمدوا إلا على المشاهدة المحسوسة ، وأن يحذفوا من أقوالهم كل الافتراضات التى لا يمكن تحقيقها » .

هذه هى أصول فلسفة العصر الحاضر ، فهل الماديون منها فى شىء ؟ هل منها حكمهم البات بقدم المادة وأبديتها ، وبعدم وجود عالم أرفع من عالمها ؟

يقول خصومنا : إذا كانت هذه الإنكارات الباتة ليست من فلسفة العصر الحاضر ، فهل منها القول بحدوث المادة ، وبوجود عالم أرفع من عالمها ؟

نقول : لا ، ليس منها هذا ولا ذلك ، ولكن إذا وُفق رجال من أهل العلم إلى البحث فى منحى جديد من مناحى الوجود ، فأكدوا لنا عثورهم على آثار عالم فوق هذا العالم ، وبقيام عقول كعقولنا فيه مجردة عن المادة ، ودعوا إخوانهم من كل جنس لشهوده ؛ فلبوا الدعوة وأيدوهم فيها ، وما زالوا يكثرون حتى بلغوا الألوف فى تسعين سنة متوالية ، فبأى حق ننكر عليهم ما يقولون وهو خاضع للتجربة ؟

إذا كنا ننكر ذلك العالم العلوى بحجة أنه مما لا ندركه بأبصارنا ولا نحس به بمشاعرنا . فإن فى الوجود الذى نعيش فيه ظواهر مادية كشفها العلم المحسوس وقررها ، ونحن لا نحلم بوجودها ، فهل فى الأرض من يقول بوجوب نكرانها ؟ قال الأستاذ الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) فى كتابه (الموت وغامضته) : la mort et son mystère

« الإنسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور ، وهى لا تدرى أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بكل ما يقع فيه ، فإن حواسنا تخدعنا فى كل شىء ، والتحليل العلمى وحده هو الذى يؤتينا ببصيص من النور عنه .

من أمثال ذلك أننا لا نشعر بالحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه ، فهو يسبح فى الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر فى الساعة ، ليتم دورته السنوية حول الشمس .

ولا نشعر بثقل الهواء علينا مع أن سطح كل جسم إنسانى يحمل منه مازنته ١٦٠٠٠ كيلو جرام معادَلة بمثلها من الضغط الداخلى .

وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل .

والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٥٠ كيلو متر على الإبرة المغناطيسية .

وحواسنا العادية تشعر بروائح وأصوات وأنوار ، والحقيقة أن ليس فى الكون خارج حواسنا غير حركات صامتة ، فالنور والحرارة والصوت حركات ساكنة . وفى الكون على الدوام ذبذبات اثيرية ، تخترق هذه اللانهاية السماوية فى أثناء الليل ، كما هى وقت الظهيرة ، ولكنا لا نحس بالضوء إلا فى أثناء النهار .

ويوجد حولنا من الحركات والذبذبات الاثيرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية ، ما لا نراه ولا نحس به . هذه حقائق علمية مطلقة ، وبدائه لا يمكن النزاع فيها .

وعليه فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية ، لا تُرى ولا تُلمس ، تعجز حواسنا أن تصلنا بها .

فإذا تقرر أن حواسنا لا تكشف لنا كل ما هو موجود ، وأنها قد تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا ، فلسنا نكون على شيء من التثبت إن ظننا أن ما نراه هو كل ما فيه » .

نقول بعد هذا كله : إن أعلن رجال من أهل العلم الجديرين بالثقة أن بحثهم قد أداهم من طريق الحس إلى آثار عالم أعلى من عالم الطبيعة ، فبأى حق نرفع عقيرتنا فى وجوههم مكذبين ؟

هذا النزق لا يصدر إلا من رجل جاهل ، يتوهم أن ما يراه هو كل الواقع ، وأن كل ما ليس بموجود لحواسه فليس بموجود .

إن الله قضى أن يحتك الإسلام بالعلم فى عهد أدرك العلم فيه أنه كان مخدوعا بالقشور ، وأن جماهير من أقطابه هدوا إلى عالم ما فوق الطبيعة من طريق التجربة ، فهل تتصور بعد هذا أن الإسلام يصادف من العلم خصما لا يلين ؟

فإذا كنا نلح فى وجوب الاستفادة من هذا الاكتشاف الروحى الجديد فى هدم سلطان المذهب المادى فلسنا نبدع فى ذلك ، فإن أرقى أمة مسيحية فى الأرض قد سبقتنا إلى ذلك ، هى الأمة الانجليزية ، فقد اجتمع فيها مؤتمر دينى كما ذكرت ذلك المجلة العالمية الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٥ يناير سنة ١٩٢١ ، فقالت : « إن مؤتمر الأساقفة الأنجليكانيين اجتمع فى قصر لامبيث من ٥ يوليو إلى ٧ أغسطس من سنة ١٩٢٠ ، وحضره ٢٥٢ من رؤساء الكنيسة منهم مطارنة كنتربورى ويورك وسدنى وكبتاون والهند الغربية وملبورن وإمارة بلاد الغال الخ ، هذا عدا أكثر من مئة أسقف آخرين ، ونظر فى أمر المباحث الروحية ، فاعترف بقيمتها فى مكافحة المادية بنجاح عظيم » .

فإذا كانت الكنيسة المسيحية بعد أن أبلت بلاء عظيما فى مكافحة المباحث النفسية من أول نشوئها قد اضطرت ، بعد جهاد نحو ثمانين سنة ضدها ، أن تعترف بضرورتها ، وتستعين بها لمكافحة المادية ، فهل يهمل أمرها المسلمون ؟

إن هذه المباحث النفسية قد ادُّخرت لمثل هذه الشبهات ، وقد سخر قيم الوجود العلم الرسمى فى الاشتغال بها على أسلوبه ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد للاعتقاد بصحتها .

فإذا بقيت تحديات المذهب المادى قائمة ، و لم تقابل بما يدحضها من الطريق العملى ، ظلت ثابتة قوية ، وظل الدين حيالها ضعيف الحجة ليس له من عاصم غير التسليم . ولِمَ نرضى هذا الضيم ، والفرصة أمامنا سانحة للحصول على الدليل المحسوس ، وقد سبقتنا أعظم أمة مسيحية إليه ؟

وإذا كانت الكنيسة النصرانية قد اعتدّت بالمباحث النفسية ، تفاديا من خطر التحديات الإلحادية ، فقد اعتدت بها أيضا أعظم الجامعات الأوربية ، كجامعتى كمبردج وأكسفورد ، وفاء بحق العلم ، ومدا لسلطانه على ما نرى وما لا نرى من هذا الوجود العظيم (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ص ٥٦ ، صفر سنة ١٣٦١ هـ .

رسالة محمد

توسع الكتاب المعاصرون فى استعمال كلمة (رسالة) ، فأطلقوها على كل عمل أدبى أو اجتماعى يضطلع به فرد من الأفراد لفائدة المجتمع الذى يعيش فيه ، فيقولون : قد أدى فلان رسالته العلمية على أكمل حال ، ونال إعجاب مواطنيه وشكرهم .

وهم ما استحسنوا هذا التوسع إلا لدلالته على أن كل إنسان مدفوع بتأثير ميوله الطبيعية لأن يضطلع بعمل من الأعمال لمصلحة الجماعة التى يعيش بين ظهرانيها . وهو تعبير مجازى منقول عن بعض اللغات الأجنبية ، ومؤسس على المقررات البسيكولوجية .

فإذا حاول مفكر لا يعتقد بإمكان الوحى ، ولا يقول بالنبوة ، أن يقدر قدر الرسالة التى أداها محمد ﷺ للمجتمع الذى نشأ فيه وللعالم أجمع ، فى حدود الاستطاعة البشرية (العادية) ، وجد نفسه حيال حوادث ضخمة لا يعقل أن تتم إلا فى خلال آماد طويلة ، وعقب تطورات متوالية ، ومقدمات متتابعة .

ماذا يجد ؟ يجد أنه ﷺ ، فى خلال سنوات معدودة ، أخرج أمته طفرة من حالة قبيلية كانت عليها ، إلى وحدة اجتماعية قوية التماسك ، سقطت فيها كل مميزات الحالة الأولى ، من التمايز بالأنساب ، والتباهى بالألقاب ، والتناحر لأتفه الأسباب ، فضلا عن تجردها من كل غاية اجتماعية ، ونزعة عمرانية ...

ويجد جماعات كانت من حياتها الأدبية فى جاهلية جهلاء ، تتقلب فى حمأتها ، وتعمل على ما تقتضيه من اهتضام حقوق المستضعفين ، ووأد البنات والبنين ، وتأليه الأقوياء الأعلين ، والرتوع فى أقذار الشهوات الجسدية ، وأقذاء المطالب الحيوانية ، عارية من كل المطامح العقلية ، والمرامى العلوية ؛ نقلها محمد ﷺ إلى أمة تدين بالكرامة الإنسانية ، وتشرئب إلى المكانات العقلية ، وتقوم على أرقى المبادىء

الحكمية ، وأشرف الأصول الأدبية ، وترمى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، غير مفرقة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا مكترثة بالحوائل التى كانت أقامتها الكبرياء ، وفرضتها الجهالة العمياء .

أمة لها مقاصد عالمية ، ومرام قصية ، من توحيد البشرية ، وإحالة أديانها إلى وحدتها الأصلية ، وحسم ما بينها من أسباب الخلافات العرضية .

ويجد فتاما كانت تفخر بالأمية ، وتعتز بالحياة البدوية ، وتباهى بالتحلل من جميع الربط الاجتماعية ، قد استحالت فيها الحماسة الحربية إلى ضراوة وحشية ، والنزعةُ الاستقلالية إلى فوضى حيوانية ؛ لا يعتدون بأصل عقلى ، ولا يأبهون بمقرر علمى ، ولا يبالون بنظام عالمى ، انقطعوا فى صحاريهم وورديانهم إلى تقاليد موروثة لا يبغون عنها حولا ، كانوا يقولون كلما نبههم إلى الانتقال عما هم عليه منذرُهم : ﴿ إِنَّا وَجَدنَا ءَابآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (أى على طريقة) وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [1] ؛ وقد وصفهم الحق بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَى ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [2] ؛ وهذا نهاية ما يعرف من الجمود على القديم .

فما لبث محمد ﷺ إلا سنين حتى انقلبت حالتهم إلى ضد ما كانت عليه ، فرأيناهم منهومين بالعلم ، مشغوفين بالنظام ، معنيين بالترابط والتضام ، قد استحالت ضراوتهم الحربية إلى شجاعة مشبعة بروح الرحمة ، وقّافين مع الأصول المقررة ، كأنهم خريجو جامعات ؛ معتدّين بالمعارف المحررة ، كأنهم أعضاء أقاذيميات ؛ محترمين للنظام العالمى العام ، وعاملين على الاندماج فيه .

وأعجب من كل هذا وأدعى للدهش والحيرة ، أن محمداً ﷺ أحاط إصلاحه هذا بضروب من المناعات والحوافظ وأسباب البقاء وعوامل التطور ، جعلت عمله ثابتا مستقرا لا يتزعزع بوفاته ، ولا ينحل بما يطرأ عليه من انتقالات الحكم وآفاته ؛ فأحدث هذا المجتمع الفتى القليل العدد فى المجموعة العالمية من التحولات ما لم يكن

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣ .

(٢) سورة الصافات : ٦٩، ٧٠ .

يحلم به أحد ، فزالت بواسطته دول ، وخلفتها دول ، وولدت مبادىء فى الدين والأدب والسياسة لم تكن موجودة ، نازعت الحياة مبادىء عتيقة كان لها السلطان المطلق على العقول والقلوب آمادا طويلة ، واضطرتها إلى الانحسار والانكماش ، وما كانت غير برهة من الزمان حتى تبدلت الأرض غير الأرض ، والعقول غير العقول ، فاتجه العالم مدفوعا بحركة قاهرة إلى الخروج من جمود طال عليه الأمد فيه ، وحلت به حياة جديدة كان من آثارها نهوض الشرق من كبوته ، وتنبُّه الغرب من غفلته ؛ ولا يزال العالم يتطور تحت تأثير ذلك الانقلاب ولما يتم تطوره ، وإن يوما من أيام الانتقالات الاجتماعية كألف سنة .

فإذا أراد المتأمل بعد هذا البيان المجمل أن يقدر قدر رسالة محمد بين الرسالات الإنسانية التى قام بها الأفذاذ ، ولم يكن مؤمناً بالنبوة ، حار أن يجد لها معياراً يزنها به ؛ وإذا عمد إلى المقارنة بينها وبين غيرها لا نقول يجد البون بعيدا بينهما ، ولكنا نقول لا يجد تلك المقارنة ممكنة .

نعم ، قد نبغ فى الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنهم دون استثناء جاءوا بالأوليات ، ثم كمل عملهم فى قرون كثيرة بواسطة من تتابعوا بعدهم من تلاميذهم . فإن كانوا بسبيل تأليف أمة انحصر جهدهم فى وضع الأساس ، لأن أعمارهم لا تتسع لأكثر من ذلك ، وتركوا لمن يجىء بعدهم رفع البناء ؛ وإن كانوا بصدد إصلاح المعتقدات ، وتهذيب العادات ، أتوا ببعض المقدمات ، ووكلوا لأخلافهم القيام بما يستدعيه هذا الإصلاح من المحاولات ؛ ولكن محمداً جاء بالنهايات ، فوضع أساس الاجتماع وأقام عليه البناء ، وأصلح المعتقدات بعد أن اجتث الوثنية اجتثاثا لا تقوم لها بعده قائمة هناك ، وهذب النفوس ، وطهر القلوب ، وأنار العقول ، ولم يترك الأمة إلا وهى مثل أعلى لما يمكن أن تكون عليه جماعة من صحة الاعتقاد ، وترابط الآحاد ، وتوحد الوجهات ، وتكافل الطبقات ، وتضافر الهمات على بلوغ أقصى الغايات .

هذا من ناحية بناء المجتمع ، وأما من ناحية النظم التى يجب أن يقوم عليها ، فقد جرت السنن العادية على أن تكون فى مبدأ أمرها أولية ، ثم تتطور على طريقة تدريجية ، حتى تصل إلى ما تصل إليه النظم الوضعية ، فى مدى آماد تعد بالقرون ؛

ولكن محمداً خرق هذه السنة ، و لم يترك الأمة إلا بعد أن ترك فيها كتابا شمل من أصول التشريع ، ومبادىء الاجتماع الراقى من العدالة والمساواة والحرية والديموقراطية وحدود الحقوق والواجبات ، مالم تصل الأمم المتمدنة إلى بعضه إلا فى العصور المتأخرة ، بعد قرون قضتها فى الانقلابات والفتن والثورات .

فإذا كان قصارى رسالة العبقرى ، ركناً يقيمه فى بناء المجتمع ، أو تجديداً يوفَّق إليه فى ناحية من نواحى النشاط العلمى أو العملى ، ولهذا السبب يُحشر فى زمرة بناة الإنسانية ، ويتنافس البسيكولوجيون فى دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وقد يبالغون فيعنون بقياس جمجمته ، وتعيين نسبة مخه إلى سائر جسده ، ففى أية مكانة تضع رسالة محمد ، وبأية نهمة يجب أن يُعكف على دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وفى أية زمرة يجب أن يُحشر بعد ذلك من مؤسسى الإنسانية ؟

من الظلم البين أن نضعه فى مستوى أصحاب الرسالات المجازية ، لأن البون سحيق بينهم وبينه ، أفلا يكون من العدل أن نضعه حيث وضع هو نفسه : بشر يوحى إليه ، ورسول خلت من قبله الرسل ؟

هنا تقوم عقبة كأداء فى طريق الذين لا يعتقدون بالوحى ولا بالنبوة ، فتراهم قد يعترفون بأن ما قام به محمد ﷺ عمل فذ ليس له شبيه فى أعمال العباقرة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعتبروه من آثار عالم ما فوق الطبيعة ، لأن هذا العالم عندهم غير موجود إلا فى خيال الذين يقولون به ، فكل ما فى الكون فى مذهبهم كونى ، وكل عمل يتم فيه طبيعى ، حتى الروح والعقل والنواميس ، والنظم الوجودية ، والإبداعات الصورية والمعنوية .

فهم يقولون : العلم الذى يجب أن يعوَّل عليه دون غيره ، يشترط أن يكون لكل حقيقة دليل محسوس ، ولا دليل لكم على إمكان الوحى ، ولا على النبوة ، إلا ما تنتزعونه من خيالكم انتزاعا ، فلا حق لكم فى تكليفنا بعقيدة ليس لها أصل تقوم عليه على شرط العلم .

نقول : لو كنتم عنيتم باستيعاب المقررات العلمية ، لما تعذر أن تجدوا للوحى وللنبوة ما يسوغهما منها . أما علمتم أن التنويم المغناطيسى أصبح من المقررات

العلمية ، وأنه كشف أن للانسان عقلا باطنيا أرقى من عقله العادى ، هذا لا يمكنه أن يستمد معرفته إلا بواسطة آلات وأعصاب ، وذلك يستمدها بذاته بغير وساطة آلات ولا أعصاب ؛ وهذا إدراكه للموجودات محصور فى حدود الحواس ، وذلك إدراكه غير محصور فيها ، فهو يرى ويسمع ويحس ويشم ويذوق ما هو بعيد عنه بألوف الأميال ؛ وهذا تقوم الحوائل المادية عقبة دون إدراكه ، وذلك لا يصده حائل عن الإدراك ، فهو متصل بالعالم اتصالا مباشرا على حالة تشعر بأنه من عالم أرفع منه بما لا يقدر ، ولا يحجبه عن الظهور إلا الحالة العادية التى عليها الإنسان ، ولكن متى بطلت هذه الحالة العادية بواسطة النوم المغناطيسى ، خلفتها الحياة الحقيقية للروح ، ورئى رأى العين أنها ليست فى حاجة إلى الحواس الخمس فى الاتصال بمصادر المعرفة ، وأنها لا تتقيد بحوائل الزمان والمكان ، فإذا كُلفت أن تأتى بخبر من أقصى الأرض ، انتقلت إليه بمجرد الإرادة ، وأتتك بما تسأل عنه كأنه بجوارها ؛ وإن سألتها فى أى عالم تعيش ؟ أجابتك أنها متصلة بعالم ما فوق الطبيعة ، وأنها تقابل الأرواح المجردة فيه .

أفلا تدل كل هذه الظواهر المحسوسة على أن للروح الإنسانية اتصالا باطنيا بعالم أرفع من هذا العالم المادى ، تتصل فيه بالأرواح المجردة ، وتستمد منه ما هى فى حاجة إليه من القوة والمعرفة ، وأن (العلم الرسمى نفسه) هو الذى كشف هذا الأمر بعد أن دأب على دراسته من سنة (١٧٧٥) حيث أعلنه الدكتور (مسمر) ، ودأب على تمحيصه الباحثون إلى اليوم ؟ .

هذه حالة العقل الباطن فى الإنسان العادى ، فماذا تكون حالة هذا العقل الذى بلّغ الإنسان درجة الصفاء ، كما هو عند بعض الأفذاذ من الذين اتفق على اعتبارهم رسلا وأنبياء ، ألا يكون أشد اتصالا بالعالم الروحانى ، وأكثر قبولا للفيض الإلهى ، من طريق غير طريق الحواس ، وهو ما اتُّفق على تسميته بالوحى ؟

إن (العلم) أثبت بما شاهده من آثار ما أسماه بالعبقرية ، أن من الناس من يلهمون بالإبداع فى بعض النواحى إلهاما من غير طريق التفكير ولا الجهد العقلى ، فيأتون بما لم يسبقهم إليه أحد ولم يكونوا هم يتخيلونه تخيلا ، وكان (العلم) يسجل هذه الحوادث الفذة ، ويمتنع عن تعليلها لاستعصائها على كل علة ، حتى

اكتشف العقل الباطن ، وعرف أن له اتصالات باطنية لا علم لصاحبه بها فى (حالته العادية) ، فسهل تعليلها من هذا الطريق ؛ أفلا يمكن تعليل النبوة بهذه الاتصالات نفسها وإن كانت هذه أرق من تلك ، وأبعد منها أثرا ، وأرفع شأنا ؟

كلمة ختامية :

إن الذين يعتصمون بالعلم ، ويرون الحكمة فى أن يقفوا عند حدوده ، لهم الحق أن يفخروا بموقفهم هذا ، ولكن الواجب عليهم أن لا يتجاهلوا بعض ما وصل إليه ، ليحافظوا على مذهب أهله فى عصر غير العصر الذى يعيشون فيه .

نحن اليوم فى منتصف القرن العشرين الذى ثبت فيه عمليا أن المادة أصلها القوة ، وأنه يمكن إفناء أية مادة عمليا ، وأن المذاهب الفيزيولوجية التى حاول أصحابها فى عصر مضى أن يثبتوا بها أن العقل إفراز مخى ، وأن الحياة نتيجة الاحتراقات المادية فى الخلايا ، وأن الشخصية الإنسانية نتيجة التركيب الجسماني ، هذه المذاهب قد أخذت حظها من انخداع العقول بها ، ثم سقطت دولتها أمام ظواهر التنويم المغناطيسى ، والمباحث البسيكولوجية الأخرى . وقد اعترف علماء لا يشق لهم غبار بهذه الحقيقة على رءوس الأشهاد .

قال البحاثة المشهور (جابرييل دولان) فى كتابه (المذهب الروحى أمام العلم) بعد أن ذكر ما قوبل به اكتشاف التنويم المغناطيسى من المعارضات قال : « أما اليوم فقد حدث فى مصلحته رد فعل عظيم ، فانك ترى الجرائد على اختلاف صبغاتها وأماكنها ، والمجلات الطبية أيضا ، مشتغلة بذكر ظواهره العجيبة ، وحوادثه المدهشة » .

وقال العلامة الدكتور شاركو وهو من أقطاب النهضة الطبية العالمية فى هذا العصر : « النوم المغناطيسى عالم تجد فيه بجانب الظواهر التى يمكن تعليلها بعلم الفيزيولوجيا ، ظواهر أخرى فوق الطبيعة لم يستطع أحد تعليلها للآن ، ولا تتفق وأى مقرر فيزيولوجى »

وقال الأستاذ العلامة (بيو) فى كتابه (المخاطبات على المغناطيس الحيوى) :

« النوم المغناطيسى يثبت وجود الروح وخلودها ، ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تزل مكتسية بالمادة » .

هذا أثر التنويم المغناطيسى الذى يتجاهل منكرو عالم ما فوق الطبيعة أمره ، وليس هذا من القيام بحق الأمانة العلمية فى شىء .

هذه كلمة أقولها على عجل ، ذكرى لمن كان له قلب ، مستدلا بها أن العلم الذى يتحككون به فى إنكار عالم ما فوق الطبيعة ، ليس هو اليوم بالعلم الذى كان ينكر كل ما يجهله ، ولكنه علم اكتشف من آثار العالم العلوى ما جعله يمضى قدما فى سبيل الاستكثار من ظواهره ، وفيها من الدلائل المحسوسة على وجوده ما لا يدع للشك فيه مجالا (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، ربيع الآخر سنة ١٣٦١ هـ .

المثل العليا فى الإسلام

للإنسان قوى منوعة عقلية وجسدية يمده بها تكوينه البديع ، وُضعت فيه لتوصله إلى الغايات التى كُتب له أن يبلغها فى حياته المادية والأدبية ، فهو فى حاجة ماسة إلى عوامل أرقى من الواقع ليندفع تحت تأثيرها إلى الأمام ، ويوجه خصائصه التوجيه المناسب لمكانته ، باعتبار أنه أكرم الكائنات الأرضية . فهل هذا العامل موجود فى الواقع ؟ أجاب بعض الفلاسفة بالإثبات ، ونفاه آخرون ، رائين أن الأمر فى الأفراد والجماعات يجرى كما يتفق ، لا كما يُرجى أن يكون ؛ قالوا ما دام هناك عقل فهو الذى يملى على الإنسان ما يجب أن يسلكه تحت تأثير الحاجات الوقتية ، والدوافع النفسية ، ومقتضى الحالات الراهنة .

وعندنا أن هذا القول يمكن أن يكون صحيحا فى الحالة البدائية للإنسان ، وهو تحت تأثير الحوافز القاهرة من الحاجات الأولية ، وإزاء المخاطر المروعة من الحوادث الطبيعية ، فيرجح وهو فى هذه الحالة أن لا يكون له مُثُل عليا يرمى إلى تحقيقها فى وجوده المادى والمعنوى . ولكنه بعد أن تستتب له الحياة ، ويقوى على مغالبة الجوائح ، لا يعقل أن لا يكون له مُثل عليا لحياته الشخصية والاجتماعية ، يتوجه تحت تأثير جواذبها لتحقيقها .

وإذا ثبت أنه كان لكل أمة دين يمثل لها السعادتين فى كتابه ، وسلطان دنيوى تبذل روحها رخيصة فى سبيل توطيد أركانه ، فيتعذر على الباحث أن يتوهم أن لا يكون لكل منها مثل عليا تتطاّل بكل ما تملكه من وسع لأن تصل إليها .

دع الأمم المتغلغلة فى القدم جانبا ، واستعرض الأمم التى حفظ لنا التاريخ أخبارها كاملة ، كالصينيين والهنديين والمصريين والآشوريين واليونانيين والرومانيين ، فلا يتداخلك شك فى أنه كان لكل منها مُثل عليا فى الحياة ، مدونة فى أساطيرها ، ومحفورة فى جدران هياكلها ، وثبت أنها كلما كانت تتقدم فى سن الاجتماع ، كانت ترفع

مثلها العليا إلى حيث وصلت مطامعها . وها نحن فى عالم حافل بالأمم الراشدة ، ذات القدم الراسخة فى العلم والمدنية ، نرى لكل منها مثلا عليا فى اجتماعها وسياستها وحضارتها ، تحاول الوصول إليها .

وقد اجتمع لدينا من جملة هذه المثل قديمها وحديثها ، ما يسمح لنا بالمفاضلة بينها ، وقد استعرضنا آثارها على أهلها ، والتطورات المتوالية التى كابدتها فى حياتها ، فلم نر من بينها ما يسمو إلى مرتبة المثل العليا للاجتماع فى الإسلام ، ولا ما يشبهها فى حسن توجيه أهلها إلى المراشد ، وفى سرعة إيصالها إياهم إلى الغايات ، وفيما نتج منها من الخيرات والبركات على العالم أجمع ، فكانت جديرة بالنظر والتقدير ، وبالبحث فى إمكان رفعها إلى مستواها من وعى المسلمين وقلوبهم .

من هذه المثل العليا الإسلامية قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ [1] . هذا المثل القرآنى الأعلى ، كان من العوامل التى سيطرت على نفسية الأمة الإسلامية فقادتهم إلى ما تأدت بهم إليه من دفع ما كان رائنا على القلوب من جاهلية ، وكسر ما كان مفروضا على العقول من أغلال ، وتذليل ما كان بين الناس وبين التكمل من عقبات . وأصبحت بلاد العرب بعد أن كانت مباءة للوثنية ، ومثابة للجاهلية ، وموئلا للتقليد والجمود والتحجر ، مثاراً لأعظم اندفاع إنسانى بعيد الأثر وراء تحرير العلم والحكمة ، وتحطيم الحجب دون النظر والتفكير ، وإزالة القواطع التى كانت قائمة أمام المدنية الفاضلة .

هذا المثل الأعلى وإن كان قد تحقق والنبى موجود بين ظهرانى أمته ، فإنه بعد ذلك العهد الممتاز أصبح مثلا أعلى لأتباعه فى كل جيل ، وهو يرشح الأمة السارية تحت ضوئه لأن تكون خير أمة ، ولم يحصر الخير فى القوة ولا فى الثروة ولا فى شىء مما يوقظ المطامع ، ويثير المطامح ، ولكنه أطلقه ليتمحض للكمال الإنسانى

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

بغير تحديد ولا تخصيص . وخير الأمم لا يصح أن تكون أقلها ثروة ولا علما ولا قوة ، وتزيد عنها فى أن يكون من آثارها الخير أنى وُجدت ، وفى حيزها الفلاح أنى كانت ، الفلاح الناتج من تطهير القلوب ، وتقويم الأخلاق ، ومن الايمان بالله ، على أشرف الوجوه وأعلقها بالنفس ، وأشدها إهابة بالأرواح إلى السمو .

المثل العليا فى الإسلام ليست من نوع المثل الاجتماعية المعروفة ، ولكنها نسيج وحدها فى مبناها ومعناها ، وكذلك كانت فى نتائجها وثمراتها . نعم كانت فذة فى الناحيتين ؛ فإن الأمة الإسلامية ألّفت فى مثل عدد الأصابع من السنين ، وهو انتقال فجائى حير العقول ، واستعصى على التعليل ، وهو يعتبر معجزة اجتماعية ليس لها ما يشبهها فى تاريخ العالم .

ولم يقف أمرها عند هذا الحد ؛ فقد تناولت كل ما كانت عليه الأمم التى اتصلت بها من علم وفلسفة وفنون وصنائع ، فأحيت مواتها ، وزادت موادها ، وجمعت شواردها ، وبنت المدارس والجامعات لها ، وتنافس الخلفاء والأمراء فى اقتناء كتبها ، وحشروا إلى قصورهم من أكناف الأرض جلة أقطابها ، ونشروا خلاصة معارفهم فى أقطار العالم لا فرق بين شرقيّها وغاربيّها ، وقبلوا فى معاهدهم طلبة العلم من جميع الأمم غير مميزين بين مسلمها ونصرانيّها ، ولم يمض عليهم أكثر من قرنين حتى كان للمسلمين زعامة الأرض فى العلم والسياسة والمدنية .

إن فى الإسلام طائفة من الأصول والتعاليم مقيسة على قابلية النفس الإنسانية ، ومؤلّفة بحيث تستثير قواها الكامنة فيها ، وتوجهها إلى المرامى البعيدة عنها ، مزودة بمناعات مناسبة لها ، تنتج آثارا يحار فى تعليلها العقل .

هذا ما يدل عليه تاريخ الإسلام من أول وجوده إلى أن بلغ غاية نموه ، وإلا فكيف يعقل أن أمة منقسمة إلى قبائل متعادية تتألف فى مدى ثلاث وعشرين سنة حتى تستحيل إلى أمة شديدة الترابط ، قوية التماسك ، إلى حد أن تعجز الحوادث التى احتوشتها عن تفكيك عناصرها ، ثم تتابع حياتها الاجتماعية والأدبية حتى تبز بها الأمم العريقة فيها ، وتفرض سلطانها على ربع الكرة الأرضية ، لا في الناحية المادية وحدها ولكن فى النواحى العلمية والمدنية أيضا ؟

إذا لم تكن مجموعة التعاليم الإسلامية تضاعف من قوى العامل بها جسديا وروحيا مرات كثيرة ، بحيث تهيئه للتغلب على جميع العقبات التى تقف فى سبيله ، فكيف كان يسوغ تكليف الإسلام الآخذ به أن يقاوم عشرة من أعدائه ويؤاخذه إذا انهزم أمامهم ؟ ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا ﴾ (١) ، ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

وكيف يفهم أن تصل جماعة تكونت بالأمس ، لا قُدْمة لها فى العلوم ولا الفنون والحضارة ، فى مدى قرنين إلى درجة عالية منها أصبحت معها صاحبة الزعامة العامة فيها ، وبقيت مؤلفاتها وآثارها فيها تنير طريق العالم كله ستة قرون متوالية ، كما أثبتنا ذلك من أقوال أقطاب المؤرخين والاجتماعين فى أعدادنا الماضية ؟ .

كل هذا لا يمكن قوله إلا تحت ضوء النظرية التى قررناها هنا ، وسنتابع بيان تلك الأصول والتعاليم الإسلامية وندرسها من هذه الناحية الخاصة إن شاء الله (*) .

* * *

---

(١) سورة الأنفال : ٦٥ .

(٢) سورة الأنفال : ١٦ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ١١٤ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

المسلمون أمة وسط
ليكونوا شهداء على الأمم

تكلمنا فى الجزء الماضى عن المثل العليا ، ومهمتها فى تقويم الأمم وتطويرها ، من ناحية عامة ، ثم آثرنا المثل الإسلامية العليا بالذكر ، وذكرنا مثلا منها ؛ واليوم نلم بمثل ثان ، لأن فى التذكير المتكرر بهذه المُثل ، وفى بيان مكانها من نفسية الجماعات البشرية ، تقوية لتأثيرها ، بشرط أن تكون محترمة فى قلوب الآحاد ، ومتعهدة من الوعاظ بما يحببها إليهم ، وبما يدل على أن العمل بها واجب عليهم ، فى غير تنطع ولا استكراه .

نأتى اليوم من هذه المثل الإسلامية العليا بقوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

ونحن نفسر هذه الآية : فقوله تعالى : (وكذلك) إشارة إلى معنى الآية المتقدمة ، وهى قوله جل وعز : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) . سماهم سفهاء أى خفاف الأحلام ، لأنهم حقروها بالتقليد ، وبالإعراض عن النظر والتحقيق . فاعترضوا على المسلمين الأولين فى تغيير قبلتهم إلى البيت الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس . وهم فى اعتراضهم هذا قد اتصفوا بالسفاهة لأنهم لم يعقلوا أن توجيه الوجه إنما يكون إلى الله لا إلى المكان ، ولله المشرق والمغرب ، فأينما يولوا فثم وجه الله ، لأنه تعالى لا ينحصر فى مكان ، فاعتبر الغفلة عن هذه الحقيقة سفاهة .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٢ .

فيكون معنى الآية التى نحن بسبيلها : إننا كما هدينا كم فى أمور دينكم ودنياكم إلى الصراط المستقيم ، جعلناكم أمة وسطا أى خيارا معتدلين . (وأصل الوسط اسم للمكان الذى تتساوى جوانبه ، استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفى إفراط وتفريط) وإنما جعلناكم كذلك لنسند إليكم مهمة عالمية جليلة الشأن ، هى أن تكونوا شهداء على الناس فى تقصيرهم وغلوهم ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .

هذا مثل أعلى من مُثل الاجتماع لم ينزل به الوحى على أمة من الأمم غير الأمة الإسلامية . وإنه لأمر جلل يحق معه للأمة التى تنال هذا التقدير السماوى أن تبذل كل ما فى وسعها من علم وعمل للمحافظة عليه . ولا يمكنها ذلك إلا بدوام مراقبة ذاتها ، فى جميع حركاتها وسكناتها ، والجرى على الطريق السوى فى رغباتها ونزعاتها ، والقيام على القسطاس المستقيم فى معاملاتها ومنازعاتها .

فلا جرم أن أمة تنصب من نفسها على نفسها حسيبا من هذا الطراز الصارم ، وتقيم من ضميرها المشبع بروح العدل ، والمتأثر بأرفع التعاليم وأكرمها ، رقيبا على سيرتها ، تصل إلى أسمى درجات الكمال الاجتماعى ، وتتهدى إلى أبعد غايات الرقى المادى والأدبى . فإذا قلنا إن هذا المثل القرآنى الأعلى ، كان أثره على الأمة الإسلامية الأولى ، أن حفظها أولا من التدنس بالمطامع الذاتية ، والتنمر للجماعات التى وقعت تحت سلطانها ، وإنه مكنها ثانيا من دوام الاتصال بروح الوجود وقيومه ، فأيدها من القوى الأدبية بما سمح لها أن تطوى الزمان طيا ، فتبلغ فى سنين معدودة ما لم تبلغ بعضه الأمم إلا فى قرون كثيرة ، لو قلنا ذلك لما كنا مبالغين ، بشهادة الانتقالات الاجتماعية والمدنية الخطيرة التى تمت على أيدى المسلمين فى سنين قليلة .

ثم إن هذه المهمة العالية ، المخولة لهذه الأمة ، تجعلها نزَّاعة إلى التفوق فى كل فضيلة ، سباقة إلى التحلى بكل خصلة نبيلة ، وهذا يفسر ما اشتهر عن هذه الأمة من سعة الصدر فى معاملة المخالفين ، ورحب الذرع فى حماية المستضعفين ، مما كان أثره فى نشر دينها ، وإحياء لغتها ، ما لا تستطيعه الجيوش الجرارة ، ولا الدعايات القائمة ، على أشد الوسائل الإرهابية . ولئن كان ممّا أدهش المؤرخين أن تظفر أمة ، لم ينقض على تألفها من قبائل شتى أكثر من ربع قرن ، فتنقلب إلى أمة فاتحة ، وتنقض على أمتين كان لهما السلطان المطلق على الأرض ، فتمحو وجود

إحداهما ، وتفت فى عضد الأخرى ، فأوجب منه للدهش والحيرة أن تحفظ ما حصلته من الفتوحات قرونا طويلة ، وأن ترفعها عما كانت عليه من الثقافة والمعرفة درجات كثيرة .

كل هذه الانقلابات المحيرة للعقل ، والتطورات الاجتماعية البالغة حدود الإعجاز ، لا يعقل أن تكون حدثت عفواً ؛ فبديهة العقل تقتضى أن يكون لكل معلول علة ؛ وعلل هذه الشئون ، يجب أن تلتمس فى مظانها من تركيب جماعة المسلمين ، وفيما أودعه هذا التركيب ، من الروح الحافظ لوجوده ، والمانح لكل حال فيه ما لابد له منه من النظام الكافل لبقائه وترقيه .

ومن آثار هذا المثل الأعلى ، فى الأمة التى تؤمن به ، أنه ينشىء فى نفسيتها شعوراً بنوع من القوامة على سائر الأمم ؛ ولا يخفى تأثير هذا الميل فى توليد عوامل تدفعها لبلوغ المكانة الأدبية والمادية التى يجب أن يصل إليها صاحب هذه المرتبة فى نظر الناس ولكل من هذه العوامل النفسية ، نتائج تدفع إلى العلم والعمل ، وإلى التحلى بالفضائل ، والبعد عن الرذائل ؛ وليس يخفى ما يبتنى من الآثار على كل هذه المحاولات الأدبية ، فى الأمة الواحدة .

فليس بعجيب ، وقد رأيت ما ذكرناه ، أن تنهض الأمة الإسلامية نهضة لم تحدث لغيرها ممن سبقها أو تلاها من الأمم ؛ وأن جماعة تتحلى بمثل هذه الدوافع النفسية ، وتتمتع بهذه الحوافظ الأدبية ، مما أمكننا كشفه ، ولعل ما خفى كان أعظم ، جدير بها أن تبلغ إلى أبعد مدى من الارتقاء البشرى ، وأن تحتفظ بسلامتها بين العوامل المحللة ، وأن تحدث فى العالم آثاراً تبقى مظاهرها حية ما بقيت الأرض ومن عليها (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٢٢٢ ، سنة ١٣٦٦ هـ .